



الفصل الأول

أوضاع الخلافة العباسية قبيل ظهور السلاجقة

أولاً- ضعف الخلافة العباسية

- ثانياً- ظهور منصب الأمراء
- ثالثاً- الخلافة العباسية في ظل التسلط البويهي
- رابعاً- ضعف النفوذ البويهي وسقوطه:

أوضاع الخلافة العباسية قبيل ظهور السلاجقة

أولاً- ضعف الخلافة العباسية

لقد كان لضعف الخلافة العباسية، واضطراب الأحوال في بغداد، والإفلاس الخزينة، والصراع على السلطة، وضعف الخليفة القائم بأمر الله (467-422هـ / 1074-1030م) أكبر الأثر في تمكن البساسيري وهو أرسلان التركي الذي استفحل أمره ودعي له على المنابر وجُبيت له الأموال، ولم يكن الخليفة القائم بأمر الله يتخذ قراراً دونه. ولكن، بلغ الخليفة أن البساسيري ينوي نهب دار الخلافة والقبض على الخليفة، عندها اضطر الخليفة القائم بأمر الله إلى مراسلة السلطان طغرلبيك يحثه على القدوم إلى بغداد ونجدته، ثم تم إحراق دار البساسيري⁽¹⁾.

وقدم طغرلبيك سنة (447هـ / 1055م) إلى بغداد وهرب البساسيري إلى الرحبة⁽²⁾.

وعندها، طلب النجدة من مصر وتمكن من دخول بغداد سنة (450هـ/1058م)، دار القتال بينه وبين الخليفة القائم بأمر الله، ودام القتال شهراً تمكن بعدها البساسيري من إلقاء القبض على الخليفة القائم بأمر الله وحبسها، وبعدها تمكن طغرلبيك السلجوقي من فك أسر الخليفة وإرجاعه إلى بغداد ودار الخلافة معززاً مكرماً بأبهة عظيمة والأمراء والحجاب بين يديه سنة (451هـ/1059م) وتمكن أيضاً من ملاحقة البساسيري ومحاربتة وقتله وحمل رأسه إلى بغداد⁽³⁾.

ويشير السيوطي إلى حال الخليفة القائم بأمر الله قائلاً: «ولما رجع الخليفة إلى داره لم ينم بعدها إلا على فراش مصلاه ولزم الصيام والقيام وعفا عن كل من آذاه ولم يسترد شيئاً مما نهب

(1) السيوطي، تاريخ الخلفاء، ص360-361.

(2) الرُّحبة: وهي قرية بالقرب من القادسية من جهة الكوفة، ياقوت الحموي، معجم البلدان، 394/4.

(3) السيوطي، تاريخ الخلفاء، ص361.

من قصره إلا بالثمن وقال: هذه أشياء احتسبناها عند الله، ولم يضع رأسه بعدها على مخدة، ومأ نهب قصره لم يوجد فيه شيء من آلات الملاهي»⁽¹⁾.

ويذكر أن البساسيري أراد أن يزيل الخلافة من بني العباس، وكاتب الخليفة الفاطمي المستنصر في مصر ليدخل في طاعته ويخطب باسمه على منابر بغداد والخليفة العباسي عنده، وعلم بذلك فكتب إلى السلطان طغرل بك مستنجداً مستغيثاً⁽²⁾.

ثانياً- ظهور منصب الأمراء

مما زاد وأسهم في ضعف الخلافة العباسية ظهور هذا المنصب في خلافة الخليفة الراضي بالله (322-329 / 933-940م) وقلده الخليفة لوالي واسط كإجراء لحل المشكلة المالية المستعصية، وهي عدم تمكن الدولة من دفع رواتب الجند، ومحاولة من الخليفة للتخلص من الجند الأتراك وقادتهم وسيطرتهم وجشعهم⁽³⁾.

ولكن الذي حدث أن استحداث هذا المنصب لم يحل المشكلة، بل زاد في تعقيدها وأخذ القواد يتنازعون فيما بينهم حول المنصب، وهذا ما حصل في النزاع بين ابن رائق وبجكم سنة (326هـ/935م) حيث تمكن بجكم من هزيمة ابن رائق واختفائه، ثم دخل بغداد وأكرمه الخليفة الراضي ورفع من منزلته ولقبه (أمير الأمراء) وقلده إمارة بغداد وخراسان⁽⁴⁾.

ويشير السيوطي إلى (أن ابن رائق أمير واسط كان قد حكم على البلاد، وأبطل أمر الوزارة والدواوين وأصبحت السلطة بيده وبيد كتابه، وصارت تحمل إليه الأموال، وبطلت بيوت المال وبقي الراضي معه صورة وليس له من الخلافة إلا الاسم)⁽⁵⁾.

والملاحظ أن نظام إمرة الأمراء كان يزداد في كل يوم عجزاً عن ضبط أمور العراق بينما كان ملوك بني بويه يزدادون في كل يوم قوة وسمعة، حتى أراد الناس إحلال بني بويه محل إمرة الأمراء⁽⁶⁾.

(1) نفسه.

(2) المصدر نفسه، ص 361-362.

(3) محمد الخضري، الدولة العباسية، ص 389.

(4) طارق فتحى سلطان، التاريخ الإسلامي في العصر العباسي: 30/2.

(5) تاريخ الخلفاء، ص 340.

(6) المصدر نفسه، ص 340.

ففي سنة (327هـ/ 938م) توجه أحمد بن بويه إلى مدينة واسط، فقاد الخليفة العباسي جيشاً بنفسه وتصدى له وأجبره على العودة إلى الأحواز، وتكررت محاولة أخرى أشرف عليها الحسن بن بويه بعد أن حاول البريديون الاستيلاء عليها، فأراد البويهيون السيطرة عليها من أجل حماية الأحواز، ولكنها فشلت⁽¹⁾.

وفي سنة (331هـ/ 942م) سار أحمد بن بويه لاحتلال البصرة وقاومه البريديون، إلا أن قسماً من الجيش البويهي انحاز للبريديين ففشلت المحاولة⁽²⁾.

وفي سنة (333هـ/ 945-946م) احتل أحمد بن بويه البصرة وواسط فتوجه إليه توزون أمير الأمراء وأجبره على الانسحاب إلى الأحواز⁽³⁾.

وتوفي توزون وخلفه كاتبه جعفر بن شيرزاد امرة الأمراء ما جعل البويهيين يفكرون في العودة مرة أخرى للسيطرة على بغداد التي كان فيها القائد التركي (ينال كوشة) الذي كان يرأس أحمد بن بويه ويدعوه للقدوم إلى بغداد للسيطرة عليها، ويغريه، ويصف له الوضع الضعيف للخليفة العباسي وضعف الجيش في مواجهته، وبالفعل توجهت القوات البويهية صوب بغداد بقيادة أحمد بن بويه، واحتلتها سنة (334هـ/ 945م) وبدأت حقبة جديدة على العراق وهي السيطرة البويهية، والتي امتدت إلى سنة (447هـ/ 1055م)⁽⁴⁾.

ثالثاً- الخلافة العباسية في ظل التسلط البويهي:

من الملاحظ أن الأمراء البويهيين قد تجاوزوا على الخلفاء العباسيين وأذلّوهم وسلبوهم سلطانهم وتعدوا على أشخاص الخلفاء، فقدت الخلافة هيبتها وضعف شأنها في عهدهم حتى أن الخليفة أضحى ألعوبة في أيديهم بل ظل رمزاً دينياً ليس له من السلطة إلا الاسم، أما السلطة الفعلية فقد كانت بيد البويهيين⁽⁵⁾.

فبعد دخول معز الدولة أحمد بن بويه إلى مدينة بغداد، سمح للجند سنة (334هـ/ 945م)

(1) حسين أمين، العراق في العصر السلجوقي، ص20.

(2) ابن الأثير، الكامل في التاريخ: 342/8-343، طارق فتحي سلطان، التاريخ الإسلامي: 30/2.

(3) المرجع نفسه: 30/2.

(4) ابن الأثير، الكامل في التاريخ: 442/8-448.

(5) المصدر نفسه: 449/8، طارق فتحي سلطان، التاريخ الإسلامي: 32/2.

بتقييد الخليفة المستكفي بالله وأخذه إلى خارج دار الخلافة، وأخذه إلى دار معز الدولة ماشياً، وسلمت عيناه، وسجن وبقي تحت التعذيب إلى أن فارق الحياة سنة (338هـ / 949م)⁽¹⁾.

ويذكر أن الخليفة المستكفي بالله لما دخل أحمد بن بويه بغداد ودخل دار الخلافة، خلع عليه الخليفة المستكفي بالله لقبه (معز الدولة) وأخاه علياً (عماد الدولة) وأخاهما الحسن (ركن الدولة) وضرب ألقابهم على السكة⁽²⁾.

بعدها، تولى الخليفة المطيع لله (334-363هـ / 945-973م)، وبما أن الخليفة الجديد جاء به البويهيون فلم يكن بيديه شيء، فأصبح الحاكم البويهي هو الحاكم المطلق، والذي عينه له وزيراً لأول مرة، في حين أصبح للخليفة العباسي كاتباً يتولى الإشراف على أموره ومصاريفه، والإشراف على إقطاعات الخليفة⁽³⁾.

وتشير المصادر إلى أن معز الدولة البويهي كان قد حجر على الخليفة المطيع لله أثناء الحرب مع الحمدانيين خوفاً من تحالفه معهم، ورفع هذا الحجر سنة (335هـ / 946م)⁽⁴⁾.

وقد وصف الخليفة المطيع لله حاله بقوله: «أما الآن، فليس لي منها (أي الخلافة) إلا القوت القاصر عن كفاي، وهي في أيديكم وأيادي أصحاب الأطراف، فما يلزمني غزو ولا حج ولا شيء مما تنظر الأمة فيه، فإن أحببتم اعتزلت عن هذا المقدار أيضاً وتركتكم والأمر كله»⁽⁵⁾.

ويذكر أنه بلغ فيه إذلال البويهيين للخلفاء العباسيين أنه أجبر الخليفة المطيع لله من قبل بختيار (عز الدولة) بن أحمد بن بويه على بيع ثيابه وإنقاض داره وقبض ثمنها⁽⁶⁾.

ونتيجة لهذا التعامل اضطر الخليفة المطيع لله إلى خلع نفسه، وعهد بالخلافة إلى ابنه الطائع لله، الذي لم يسلم من البويهيين وأجبر على خلع نفسه سنة (381هـ / 990م) وتسليم الخلافة إلى القادر بالله، واستمر في دار القادر إلى أن توفي سنة (393هـ / 1002م)⁽⁷⁾.

(1) المرجع نفسه، ص36.

(2) السيوطي، تاريخ الخلفاء، ص344-345.

(3) المصدر نفسه، ص344.

(4) السيوطي، تاريخ الخلفاء، ص345، طارق فتحي سلطان، التاريخ الإسلامي، ص37.

(5) المصدر نفسه، ص346، المرجع نفسه، ص37.

(6) ابن الأثير، الكامل في التاريخ: 619/8، طارق فتحي سلطان، التاريخ الإسلامي، ص38.

(7) المرجع نفسه، ص38.

ومن أجل السيطرة الكاملة على الخلافة نلاحظ أن الأمراء البويهيين انتزعوا صلاحيات الخلفاء بتعيين ولي العهد وحكام الأقاليم والولايات، كما قاموا بتحديد وتعيين أي ولي عهد يريدون، كذلك حاولوا السيطرة على الخلافة عن طريق الزواج السياسي، وذلك بتزويج بناتهم من الخلفاء العباسين ففي سنة (364هـ / 974م) زوج عز الدولة بختيار به معز الدولة ابنته «شاه باز» من الخليفة الطائع لله⁽¹⁾ وجرى الشيء نفسه سنة (369هـ / 979م) عندما زُوج عضد الدولة فنا خسرو بن ركن الدولة ابنته الكبرى من الخليفة الطائع لله⁽²⁾ وفي عام (383هـ / 993م) عقد بهاء الدولة بن عضد الدولة لابنته سكينه على الخليفة القادر بالله، لكنها توفيت قبل الدخول بها⁽³⁾.

وقد اتبع البويهيون سياسة فرق تسد، وهي سياسة قديمة اتبعتها مختلف الدول المحتلة منذ قديم الزمان لكي تسيطر على البلاد وتقهر المقاومة فيها، وغالباً ما تلتزم هذه الدول فئة معينة من المجتمع وتدعمها من أجل إحكام سيطرتها، وقد فعل هذا الشيء البويهيون⁽⁴⁾.

ونتيجة لهذه السياسة، فقد عم الخراب عموم البلاد وضعف الإنتاج وانقطعت التجارة وارتفعت الأسعار، وتفشت المجاعات واندثرت الأنهار لاعتماد البويهيين على القطاع العسكري، وضعفت الصناعة والتجارة والزراعة وشاع الفقر وتفككت الأخلاق وفشت الجرائم. ويذكر أن البويهيين حكموا العراق مثل الأجانب فلم يهتموا بشؤون الناس وإنما كان هدفهم جمع الأموال من الضرائب ومنحوا الإقطاعات لجنودهم، وظهر لنا ما يسمى بـ (الإقطاع العسكري)، حيث منحوا الجند والقادة الأراضي بدل الرواتب⁽⁵⁾.

وبسبب التعسف في الجباية ظهر لنا (نظام الإلجاء) وهو خوف الفلاحين من الظلم واعطاءها لشخص متنفذ، فتحوّلت ملكية الأرض بهذه الطريقة إلى القادة خاصة من الأتراك؛ فملكوا البلاد واستعبدوا الناس.

وتراجع النشاط الصيرفي والتجاري في زمن البويهيين، وذلك بسبب اعتمادهم على الأرض، وتقلص الاعتماد على النقد، إضافة إلى ذلك تعرض التجار إلى المصادرات والضرائب بسبب تجزئة أراضي الخلافة.

(1) السيوطي، تاريخ الخلفاء، ص355.

(2) ابن الأثير، الكامل في التاريخ: 9/9، طارق فتحي سلطان، التاريخ الإسلامي، ص39.

(3) المصدر نفسه: 9/9.

(4) المصدر نفسه: 101/9.

(5) طارق فتحي سلطان، التاريخ الإسلامي، ص40.

وكذلك، نلاحظ أن البويهيين سكوا نقوداً رديئة وأنقصوا أوزانها، وذلك بتخفيض المعدن الثمين فيها⁽¹⁾.

رابعاً- ضعف النفوذ البويهي وسقوطه:

لقد تضافرت عوامل عديدة في التعجيل بزوال النفوذ البويهي من العراق، فكان أبرزها هي:

1 - مقاومة الخلافة العباسية متمثلة بشخصية الخليفة نفسه

حيث ذهب عدد من الخلفاء ضحية هذه المقاومة، فلقد بقي الخليفة العباسي المستعين بالله (333-334هـ / 944-945م) يرأس الحمدانيين من أجل أن يعدوا العدة وقواتهم لمواجهة التسلط البويهي، ولكن محاولته فشلت وتمكن البويهيون من التخلص منه⁽²⁾.

بعدها، جاء البويهيون بالخليفة المطيع لله (334-363هـ / 945-973م) الذي وقف ضد تصرفات البويهيين وسلوكهم، فقد اعترض على قرار معز الدولة البويهي بتعيين الحسن بن أبي الشوارب في منصب قاضي القضاة وتضمين هذا المنصب⁽³⁾.

وبعدها، وقع الخليفة المطيع لله ضحية الصراع بين عز الدولة بختيار وسبكتكين الحاجب عام (363هـ / 973م)، في حين استجاب الخليفة الطائع لله (636-381هـ / 973-991م) لطلب سبكتكين الحاجب، وشارك شخصياً في هذه الحملة وعندما توفي سبكتكين واختار الأتراك (افتكين) وافق الخليفة الطائع لله على هذا الاختيار وأنعم على القائد الجديد ب لقب (نصير الدولة)، وتحدى الخليفة الطائع لله البويهيين عندما وصلت قوات عضد الدولة البويهي لمساندة عز الدولة، فدعا الخليفة الأشراف والقضاة والأتراك إلى مواصلة الصمود وعدم التعاون مع عضد الدولة، واعتقل الخليفة الطائع لله أبا الحسن بن المعلم أبرز قادة الجيش البويهي، وكان هذا سبباً رئيساً في عزله من الخلافة⁽⁴⁾.

بعدها، تولى الخليفة القادر الحكم (381-422هـ / 991-1030م) وفي عهده بدأ الضعف يدب في السلطة البويهية، فاستغل الخليفة القادر بالله هذا الضعف لصالح الخلافة العباسية

(1) المرجع نفسه، ص40.

(2) المرجع نفسه، ص44-45.

(3) ابن الأثير، الكامل في التاريخ: 450/8، طارق فتحي سلطان، التاريخ الإسلامي، ص49.

(4) طارق فتحي سلطان، التاريخ الإسلامي، ص49.

والعمل من أجل إعادة هيبته، واستطاع اتخاذ جملة قرارات مهمة ومؤثرة ضد التسلط البويهي، فأول عمل قام به هو تعيين ولي عهد من دون الرجوع إلى البويهيين⁽¹⁾.

ومنح قرع الطبول لجلال الدولة الذي دخل بغداد عام (418هـ / 1027م) خمس مرات يومياً⁽²⁾.

وفي سنة (420هـ / 1029) أصدر الخليفة القادر بالله (المنشور القادري) وقام الخليفة بقراءته على وجوه أهل بغداد من القضاة والشيوخ والأعيان، ودعاهم فيه إلى الالتزام بالقرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة وسيرة السلف الصالح، ودعاهم كذلك إلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر⁽³⁾.

وعندما تولى الخلافة القائم بأمر الله (422-67هـ) / (1031-1074م) سار على نهج أبيه في الاستقامة والعدل والعناية بشؤون الناس والاطلاع على أحوالهم، وطلب من القادة والمقربين معرفتها وقضاء حوائجهم وإيصال أصحاب المظالم إليه، فأحبه الناس ووقفوا إلى جانبه⁽⁴⁾.

وفي سنة (423هـ / 1032م) قام جلال الدولة البويهي بشرب الخمر علانية في دار الخلافة؛ فهدده الخليفة القائم بأمر الله بترك مدينة بغداد في حال كررها مرة أخرى⁽⁵⁾.

وتشير المصادر إلى أن الجند البويهي قاموا بنهب متاع من دار الخلافة؛ سنة (426هـ / 1034م)، فاحتج الخليفة على ذلك، وطالب بإحضار الجناة والمواد المسروقة من أجل إثبات هيبة الخلافة⁽⁶⁾.

ورفض الخليفة القائم بأمر الله إعطاء لقب ملك الملوك لجلال الدولة البويهي، وأمر الخليفة الملك الرحيم البويهي بإبعاد أبي الحارث الباسيري من بغداد لسوء تصرفه، ويعد من كبار القادة الأتراك البارزين في الجيش⁽⁷⁾.

(1) ابن الأثير، الكامل في التاريخ: 79/10-80، طارق فتحي سلطان، التاريخ الإسلامي، ص50.

(2) المصدر نفسه: 409/9-414.

(3) نفسه.

(4) ساجد عبد محمد، الخليفة القادر بالله، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة الموصل، ص23.

(5) طارق فتحي سلطان، التاريخ الإسلامي، ص51.

(6) نفسه

(7) نفسه

2- مقاومة العامة للنفوذ البويهي

وقف الناس في العراق وفي مختلف مدن الإمارة الحمدانية مع قادة هذه المدن ضد التسلط البويهي، وقد وقف الحمدانيون إلى جانب الخلافة العباسية وقد حدثت ثورة في مدينة الموصل وعزم سكان مدينة الموصل القضاء على كل الوجود البويهي في المدينة، ولكن الأمير الحمداني لم يوافق على ذلك خوفاً من ردة فعل البويهيين ضد سكان مدينة⁽¹⁾.

وقد ثارت العامة في بغداد على صاحب المعونة البويهي في سنة (362هـ / 972م) بعد قتله أحد الأشخاص فيها وتمكنوا من قتله، وبعدها هاجم الناس السجون وأخرجوا كل من ألقى القبض عليه في هذه الحادثة، بعدها قام البويهيون بإحراق بيوت المشتركين في الثورة ومحلاتهم والتي وصل عددها إلى (300) دكان⁽²⁾.

وفي سنة (375هـ / 983م) فرض البويهيون ضريبة على المنسوجات؛ فثار الناس وعمت الفوضى في بغداد، وطالبوا بإلغاء الضريبة لأن فيها ضرراً كبيراً عليهم، وتراجع البويهيون بعدها عن المطالبة بها⁽³⁾.

ويذكر ابن الجوزي: «في هذه السنة همَّ صمام الدولة أن يجعل على الثياب والأبريسمات والقطنيات التي تنسج في بغداد ونواحيها ضريبة، وكان أبو الفتح الرازي قد كثّر ما يحصل من هذا الوجه، وبذل تحصيل ألف ألف درهم منه في كل سنة، فاجتمع الناس في جامع المنصور، وعزموا على المنع من صلاة الجمعة، وكاد البلد يفتتن فاعفوا من أحداث هذا الموسم»⁽⁴⁾.

وفي سنة (423هـ / 1032م) أراد الناس القيام بثورة كبيرة مسلحة ضد التسلط البويهي، إلا أنها توقفت بسبب قوة البويهيين وقسوتهم، بعدها حدثت ثورة أخرى سنة (429هـ / 1037م) احتجاجاً على تسمية جلال الدولة البويهي بلقب (شاهنشاہ- ملك الملوك) في خطبة الجمعة⁽⁵⁾.

(1) طارق فتحي سلطان، التاريخ الإسلامي، ص51.

(2) نفسه.

(3) مسكويه، تجارب الأمم: 353/5.

(4) المنتظم: 127/7، رواء محمد قاسم العكيدي، النظم المالية في العراق في العصر البويهي، ص102.

(5) المصدر نفسه: 127/7.